بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

ما أكثر ما تزخرُ به مكتبتُنا العربيةُ من كنوزٍ كان لها الفضلُ في حفظ الثروة اللغويّة التي امتدّ عمرُها أكثرَ من خمسةَ عشرَ قرنًا !

ولعل «**المعاجم العربية**» على رأس تلك الكنوز ، فليس هناك من يُنْكِرُ أنها قامت على حراسة ألفاظ اللغة ومعانيها وعباراتها التي نزل القرآن الكريم بها ، وكان له أثره العظيم في حفظها .

ولما كانت اللغة ابتكارًا من أبدع ما وصل إليه الإنسان ، وأداةً تمتاز بكثيرٍ من الدُّقَّة والإتقان - كان لا بد أن تكون هناك معاجمُ للألفاظ ، وأخرى للمعاني !

ولا شك أن المعنى وثيقُ الصلة باللفظ الذي يؤَدّيه ؛ لأنه ثوبهُ ووعاؤُه ، وقديمًا قالوا : «التفكيرُ حديثُ النَّفْسِ» ، والألفاظ هي الوسيلة لتحديد الأفكار ، وتمييز بعضها من بعض ، وإذا كانت المدلولاتُ متنوعةً ، فمن اللازم أن تتنوع الدوالّ تبعًا لها ، ولا شكَّ أن الأفكار متفاوتةٌ معنًى ومدلولاً ؛ عمومًا وخصوصًا ، جنسًا ونوعًا .

وخصائصُ العربية لا تُحصىٰ ، ففيها إعلاء من شأن الذهن ، وتأكيد للذات العارفة ، وعناية بالمعنى ، وحرص على الوضوح مع الإيجاز ، إلى جانب حِسٍّ فَنِّيٍّ دقيق، وحسبها أنها لغة القرآن!

ويقول بروكلمان : «بفضل القرآن بلغت اللغة العربية من الاتساع مَدًى لا تكاد تعرفه أيُّ لغةٍ أخرى من لغات العالم!» .

و«فقه اللغة» يهتمّ بالمعاني ، ويضع أيْدِينا على اللفظ المناسب لكل معنى حتى نُحْسِن استخدامَهُ في دقةٍ ووضوح! إنه يسلط الضوءَ على أصل الكلمة: هل هي من اللغة الأم ، أو أنها استعارتها من لغة أخرى! ويقف معنا عند الكلمات المنحوتة المأخوذة من كلمتين أو أكثر، مثل «بسمل» ، أي قال : بسم الله الرحمن الرحيم .

ومن الأمور التي يبحثها «فقه اللغة» الكشفُ عن سر العربية ، في مجاري كلام العرب وسُنَنِها، إلى غير ذلك من الجوانب التي يبحثها فقه اللغة، وتناولها الثعالبي في كتابه ؛ بقسميه!

هذا والقواميس التي تدلنا على معاني الألفاظ، سواء أكانت مفردة أم مركبة، كثيرةٌ متعددة على مر العصور ، أما قواميسُ المعاني ؛ أي : التي تدلنا على اللفظ المنطبق على معنى خاص نُريدُ أن نُعَبِّرَ عنه – فهي لا تعدو أصابعَ اليد الواحدة إلى جانب صِغر حجم معظمها.

ثم هي تنقسم قسمين :

ما هو مختص بذكر العبارات ، وهي في الغالب عبارات أدبية ممتازة، كل طائفة منها مجموعة تحت موضوع خاص ، ومن أشهر تلك الكتب : «الألفاظ الكتابية» لعبد الرحمن ابن عيسى الهمذاني المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .

أما النوع الآخر الذي يدل على الألفاظ المفردة لمسميات أو لأفعال خاصة، مثل «فقه اللغة للثعالبي» فهو أهم كثيرًا من نوع العبارات الأدبية التي لا يضيرُ الإنسان ألا يستعملها ما دام قادرًا على التعبير عن المعنى بعبارة أخرى صحيحة وإن لم تكن كالأولى في الجزالة !

أما المسميات ، والأعمال فالعيب في أدبنا الحاضر أنه لا يُعْنَىٰ كثيرًا بالدقة في التعبير عنها، ويقنع باتخاذ الطريق الأسهل.. طريق التعبير بما هو حاضر ، فَيعبّر بالجملة حين تقتضي الدقةُ والبلاغةُ التعبير بالمفرد !

وفاتهم أن «فقهَ اللغة للثعالبي» يقدم لهم ثروة لَفْظية بين أيديهم للتعبير عن معانٍ كثيرًا ما تجيش في صدورهم فلا يكادون يجدون لها إلا تعبيرًا أو تعبيرين؛ يُستخدمان للمعاني المتقاربة كأن ليس بينها فروق !

خذ مثلًا «الشُّرْب» ؛ فالإنسان يشرب، والكلب يشرب، والجمل يشرب، والحمامة تشرب، وكأنه ليس هناك فروق بين هذه كلها في توصيل الماء إلى الجوف .

لكن العرب لاحظوا هذه الفروق، ووضعوا لكلٍّ مِنها لفظًا خاصًّا ، فقالوا عن الكلب : إنه يَلَغُ ، وعن الحمامة أو أي طائر : إنه يَعُبّ ، وعن البعير : إنه يَجْرَع ويَكْرَع، أما الإنسان: فإنه يَشْرَبُ!

وهكذا كان السابقون الأولون يختارون للمعنى المناسب اللفظَ المناسب في دِقة وحسن استخدام، ووعى بفقه اللغة، فقد ورد أن «قتيبةَ بنَ مسلم» فاتح السِّنْد لما وَلى خُراسان – بعد عبد الله بن خازم السلمي الذي انقض عليه أهل خُراسان وقتلوه – قال لأهلها :

من كان في يده شيء من مال عبد الله بن خازم فليَنْبذْه !

فإن كان في فِيه فَلْيَلْفظه !

فإن كان في صدره فَلْيَنْفُثه !

فتعجب الناس من حسن ما فَصّل وقسّم .

والأمثلة على رعاية الدقة في فقه اللغة للثعالبي كثيرة ، والنماذج متعددة متشعبة يضمها ثلاثون بابًا ، وسِتُّمائة فصل في صُنوفٍ شتَّى مما يعرض للإنسان من المسَميات ، والأفعال والأحوال .

وحسبُ «فقه اللغة» أن يُخصِّصَ لكل معنى لفظًا هو به ألصق فلا تكاد تجد معنى من المعاني التي تَحْرِضُ للإنسان المثقَّف المتحضر إلا وقد ألم به «فقهُ اللغة» وأعطاك مفتاحه ، وثوبه!

ولغتنا بحر زاخر لا يُسْبر غَوْرُه ، ولا تُحصى دُرَرُه !

ففيها المترادفات ، وفيها التفصيل والتقسيم ، وهما من أهم الخصائص وأكبر الأدلة على غزارة مادتها ، فقد جمعت ما لا يحصى من الألفاظ الدالة على أنواع الصفات ، وتفصيل الأصوات والحركات والسير والطيران ، وضروب الألوان ، وتقسيم عمر الإنسان والحيوان، وأسماء الأعضاء، وأنواع الروائح والحلى، وأسماء الطعام، وتفصيل السِّهام ، والقسى والدروع والآنية ، وأوصاف المطر والريح والسحاب، وتفصيل الرمال والجبال والوِهاد والأنجاد، والنبات وأنواع الأمراض والعاهات، والحب والبغض، والضحك والبكاء، وغير ذلك مما يدل على دقائق المعاني .

وفيها الأسماء المشتركة التي اتفق لفظها واختلف معناها، ومن المشترك نوع يدل على الشيء وضده .

ومن سماتها الاشتقاق بأنواعه الثلاثة : الصغير ، والكبير ، والأكبر ، والقلب، والنحت، والتجوز، والتعميم، والتخصيص، والازدواج ، والإتْباع، والتكرار، والزيادة، والتأكيد، والتصغير والكناية، والكُنية .

وكما أن للأسماء خصائصها ، فللأفعال خصائص ، وللحروف خصائص ، وفقه اللغة حافل بتلك الخصائص .

ومثل هذا الكتاب يعد كنزًا في كل مكتبة، فلا غنى لك عنه في مكتبتك الخاصة لترجعَ إليه ما دمت حريصًا على دقة التعبير، وموافقة اللفظ للمعنى !

فهنيئًا لك بفقه اللغة ، وزادك الله فقهًا وعلمًا .

محمد إبراهيم سليم

لقاء مع المؤلِّـــف

قبل أن تعيشَ مع «كتاب فقه اللغة وأسرار العربية» - للإمام أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ - عليه الرحمة والرضوان - نُتيحُ لك أولًا لقاءً مع المؤلف ، ثم نُلقي الأضواءَ على كتابه ، وعندئذ نسأل الله أن يزيدك فِقْهًا وعلمًا !

أما المؤلِّف - الذي عاش ثمانين سنة - فهو: : أبو منصور عبد الملك محمد بن إسماعيل الثعالبي النَّيْسَابُوري الأديب الشاعر صاحب التصانيف الأدبية السائرة في كل الدنيا.

نشأ في العصر «العباسي الثالث» الذي ظهرت فيه الدولة البُوَيْهِيّة ، وكان لبعض سلاطينها اهتمام بالشعر واللغة والأدب !

وكان - كما يقول الزِّرِكْليُّ في أَعلامه - فرَّاءً يخيط جلودَ الثعالب؛ فنُسِبَ إلى صناعته!

ولكنه اشتغل بالأدب والتاريخ فنبغ ، وصنف الكتبَ الكثيرةَ الممتعة التي ملأت الدنيا، وشغلت الناس ، وحازت رِضَا سلاطين البُوَيْهيِّين ! فلا عجب أن يقول عنه «الصَّفَدِي» :

«كان يلقب بجاحظ زمانه ، وتصانيفه الأدبية كثيرة إلى الغاية» .

ولا عجب أن يقول عنه «ابن بسام» ؛ صاحب الذخيرة :

«كان في وقته : راعيَ بليغات العلم ، وجامعَ أشتات النثر والنظم ، رأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنفين بحكم أقرانه، سار ذكره سيرَ المثل ، وضُربت إليه آباطُ الإبل!» .

كانت ولادته سنة خمسين وثلاث مئة ، ووفاته سنة تسع وعشرين وأربع مئة من الهجرة.

وتكاد مؤلفاته - في عددها - توافق سِنِيّ حياته ؛ يرحمه الله !؛ لقد كان كالإسفنجة يمتص الآراء والأفكار من كل نبع ، وإن شئت فقل كالنحلة يمتص الرحيق من رياض الأدب، وحدائق اللغة فَيُخرجه لنا أدبًا أشهى من العسل !

فمصنفاته في العلم والأدب - كما يقول «الحُصْري» - تشهد له بأعلى الرتب !

لقد كانت نشأته الأولى في «نَيْسَابور» ، واشتغل بالتدريس في كُتّاب من «كتاتيب نيسابور» ، ولكن ذلك لم يصرفه عن تحصيل العلوم يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة ليظفرَ برضاء أحد ملوك السامانية ألا وهو : «نوح بن منصور» الذي أُغرِم بالعلم، وفتح قلبَه للعلماء والأدباء ! وكان للثعالبي ما أراد فأصبح العالمَ الأديبَ والشاعرَ المؤلف .

لقد أدلى بدلوه بين الدِّلاء - وما كان أكثرَها في عصره !، فإذا هو صاحب مؤلفات تكاد

توافق سِنيَّ حياته، وإذا اسمه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأشهر مؤلفاته: «يتيمة الدهر» ، و«فقه اللغة وأسرار العربية» ، و«لطائف المعارف» .

ولقد تلقى الكثير من الأدب عن أبي بكر الخُوَارزْمِيّ ، فسال لفظُه ، وعَذب أُسلوبُه – على دِقَّةٍ – فنراه يكتب عن اللغة العربية وعلمائها فيقول :

«... نَشئوا في خِدْمَتِها الشهواتِ ، وجابُوا الفَلَوَاتِ ، ونادموا لاقتنائها الدفاتر، وسامَرُوا القَمَاطِرَ والمحابِرَ ، وكدُّوا في حصر لغاتها طباعَهم ، واشْتهروا في تقييد شوارِدِها أجْفانَهم».

ويظل كتاب أبي منصور «فقه اللغة ، وأسرار العربية» على مر الأعوام والدهور زادًا لكل الباحثين ، ومنارة لأبناء اللغة أجمعين . ويظل أبو منصور على مر الأعوام والدهور المثل للمعلم الموسوعي في اللغة وآدابها ! رحمه الله ، وأكرم مثواه ، ومنحه رضاه ..

لقاء مع المؤلَّف العظيم : «فقه اللغة وأسرار العربية»

لقد ألَّف الثعالبي كثيرًا ، وأبدع في فنون مختلفة، ومن جيد مؤلفاته : «فقه اللغة وأسرار العربية» ! لقد وضعه – كما قال – بمشورة الأمير السيد الأوحد «عُبيد الله بن أحمد» من أمراء زمانه، وامتثالًا لأمره ! ويُخبرنا أنه عانى في وضعه ما عانى ، حتى لقد اضطر إلى كثير من المراجع ، وانتجع من الأئمة مثل : الخليل ، والأصمعي، وأبي عمرو الشيباني، والكسائي، والفراء، وأبي زيد، وأبي عبيدة وابن الأعرابي، والنضر بن شُميل، وابن دُرَيْد، ونَفْطوَيْه، وابن خالَويه، والأزهري، وأبي بكر الخُوارَزْمي، والجُرْجاني، وابن فارس القَزويني، وغيرهم! وجاء كتابه «فقه اللغة وسر العربية» يضم قسمين : القسم الأول في ثلاثين بابًا في نحو ستمائة فصل؛ فهذا باب في «التنزيل والتمثيل» وهذا باب في : «الشديد والشدة من الأشياء» وهكذا تجده قد جمع كل طائفة من المعاني المتقاربة في باب .

أما القسم الثاني مما اشتمل عليه كتابه فقد ضم أسرار العربية في مجاري كلام العرب وسُنَنِها مع الاستشهاد بالقرآن على أكثرها في ثمانية وتسعين فصلًا؛ فهو كتاب رتبت فيه المادة ترتيبًا موضوعيًا في أبواب، وبهذا يجمع الألفاظ التي تستعمل في موضوع واحد معًا .

وكتاب الثعالبي هذا – كما قال النقاد – صورة لمعجم جديد لا يجري على طريقة الموضوعات كتلك الرسائل التي كتبها قدامى الرّواة، ولا يهدف إلى جمع اللغة كما أراد مؤلفو كتاب العين، والجَمْهَرة ، والتهذيب، والبارع، والصِّحَاح، ولكنه أراد جمع المستعمل من اللغة، أو ما يحضره منها في مجموعات متجانسة تجمعها صفة من الصفات، أو ظاهرة من الظواهر، أو خاصة من الخواص .

وهو مرتب على أبواب المعاني كباب في الطول والقصر، والقلة والكثرة، وسائر الأوصاف والأحوال المتضادة، وفي الملء والامتلاء، والصُّفُورَة والخَلاء.

وقد سبقه ابن السِّكِّيت ٢٤٤ هـ في إصلاح المنطق، وابن قتيبة ٢٧٦ هـ في أدب الكاتب، والهمداني سنة ٣٢٠ هـ في كتابه المعروف «بالألفاظ الكتابية» واقتفى أبو منصور الثعالبي ٤٢٩ هـ أثرهم، فألف كتابه في «فقه اللغة وأسرار العربية» وبلغ اللغويون الغاية في هذا الفن بما ألفه ابن سِيدَهْ الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ في كتابه «المخصص» الذي جمع فيه فأوعى.

هو إذًا «قاموس» رتبه صاحبه على المعاني دون الألفاظ، لتسهيل إصابة الغرض منه على الطلاب، فقد يخطر بفكرك معنى من المعاني، وتحار في إلباسه اللفظ المناسب!

وما أكثر المعاني التي تعرض في طريق القلم، أو يحوم حولها طائرُ الفكر، مما يتمثل لخاطر المنشئ، وفهم المعرّب، وتتناوله أغراضُ الكتابة والشعر!

وقد كشف الثعالبي عن الهدف الأسمى وراء تأليفه بما قاله في مقدمته: «من أحبّ الله تعالى أحب رسوله ! ومن أحبّ الرسول العربيّ أحبَّ العرب ! ومن أحبّ العرب أحبّ العربية ! ومن أحبّ العربية عُني بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها...» .

ولقد كان الثعالبي - رحمه الله - أمينًا فيما نقله عن الأئمة، فهو: يعزو القول لقائله ، فنراه يقول في صدر الفصل : «وجدته عن أبي الحسين بن فارس، ثم عرضته على كتب اللغة فَصَحَّ» ويبدو تأثره بابن فارس في كتابه «الصاحبي» في فقه اللغة وأسرارها .

وقد يظن البعض أن العرب كانت لهم عنايتهم بالألفاظ دون المعاني، وأقول : إن عنايتهم بالألفاظ كانت من أجْل المعاني ؛ أي : لكي يقع القول من نفس السامع موقعًا يُهيّئ له الحالة النفسية التي تحفزه إلى العمل !

ومن ذا الذي يستطيع أن يُنكر ما لإعجاز القرآن بلفظه ومعانيه من قوة على استنهاض العزائم، والسعي إلى بلوغ المطالب !

لقد جاء «كتاب الثعالبي» ، وغيره ممن اهتموا بالمعاني للرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ ، وإغفالها المعاني، ويقول «ابن جني في الخصائص» :

«فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها، وحسنوها فلا ترين أن العناية إذ ذاك! إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خادمة للمعاني، وتنويه وتشريف»[١] .

---

(١) ابن جني «الخصائص» ج ١ ص ٢٢٥ .

والحق أن الألفاظ خادمة للمعاني، والمخدوم أشرف من الخادم !

واللغة العربية من أكثر لغات الأرض دلالة معنوية ، والواقع - كما أوضح الثعالبي - أن في العربية صيغًا وأبنيةً دالةً على معانٍ، وصفاتٍ، وأحوال، فوزن «فَعَلان» يدل في الغالب على حركة، واضطراب؛ كالنَّزَوان، والغَلَيان، والجَيَشان، والهَيجَان!

ووزن «فُعَال» يدلُّ على الأدواء؛ كالصُّداع ، والزّكام ، والسُّعال؛ كما يدل على الأصوات كالصُّراخ والنُّباح .

ووزن «فَعْلَلَة» يدل على حكاية الأصوات كالصرصرة والقعقعة والزَّلْزَلَة.

و«صيغُ الأفعال، وأوزانُها» في العربية عامل من عوامل ثروة اللغة ، وقدرتها على الدلالة على فروق وظلال تنضاف إلى المعنى الأصلي ؛ فصيغة «فَعَّل» ترد بمعنى المبالغة، كقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] .

وتأتي أيضًا بمعنى «النسبة» نحو «جَهّل» إذا نسبه إلى الجهل ، وعدّله ؛ إذا نسبه إلى العدالة.

ومن ينظر إلى تلك الثروة اللغوية من التصريفات والصِّيغ يجد أن لكل صيغة من تلك الصيغ معنًى يدل على حالة دقيقة تخالف غيرها من الحالات !

و«الإمام الثعالبي» في هذا الكتاب يضع أيدينا على تلك الفُروق ، ويفتح عيوننا على هذه الأسرار الدقيقة !

وليس أدلّ على أهمية هذا الكتاب ، وعُلُوّ شأنه من أنه قد يخطر لك المعنى فلا تجد في لسانك اللفظ الذي يكسوه ؛ فإذا أنت رجعت إلى «فقه اللغة» وجدت اللفظ المناسب الدقيق الذي يَجيش صدرُك بمعناه، وكم أرّقك البحثُ له عن اللفظ المناسب !

إن «الثعالبي» يُتيح لك أن توفق بين المعنى واللفظ ، وتُحسن الاختيار ، وتُراعى التناسب، وتُجيد التوافق في دقة ومهارة !!

هذا وفي الكتاب باب يدل على تمكن الثعالبي من الفارسية ، وهي لغته الأصلية ؛ فالعربية هي اللغة الطارئة على لسانه ولسان ذويه، ذلك هو الباب التاسع والعشرون؛ فإنه يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية !

إنه - بحق - قاموس للمعاني ، وإن شئت فقل : من أمهات كتب اللغة .

نفع الله به أبناءها، وجزى مؤلفه عنهم وعنا خير الجزاء .

طبعات هذا الكتاب

١ - عندما ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في الخامس من شهر شعبان سنة ١٢٨٤هـ بمطبعة الحجر النيرة الفاخرة كانت بغير علامات الترقيم ، وكانت منقولة من نسخة الشيخ نصر الهوريني، ومقروءة عليه وقت التصحيح بالضبط والشكل، ولكنها لم تخل من أخطاء.

٢ - ثم قامت بطبعه «الجمعية اليسوعية» فحذفت من أصله ما حذفت !

٣ - وتلتها طبعة ثالثة بالمطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣٧١ هـ فكانت كالطبعة الأولى بلا زيادات سوى بعض تعليقات محصورة على بعض الكلمات، ووضع أقواس قرآنية ﴿ ﴾ حول عناوين الأبواب والفصول .

وخلت - كسابقتها - الأولى من عَزْو الآيات إلى سورها ، وتخريج الأحاديث المستشهد بها ، ورعاية علامات الترقيم والضبط الدقيق . والاكتفاء عنها بوضع «بعض النجوم» بين الكلمات والعبارات إلى جانب الوقوع في أخطاء تتعلق بالآيات القرآنية كالطبعة الأولى .

٤ - وتوالت بمصر المحروسة طبعات الكتاب بقسميه - على علاته - ١٣٢٥ هـ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٥ ، ١٣٥٧ هـ . كما نشر ببيروت نشرة مختصرة.

٥ - ويقول «بروكلمان» في موسوعته الأدبية - الجزء الخامس :

هناك نظم «فقه اللغة» لمجهول . عمله سنة ٧٤٢ هـ - ١٣٤١ م .

٦ - وقد أتيح لهذا الكتاب أن يقوم ثلاثة من الأفاضل بتحقيقه هم : «مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي» وكان ذلك عام ١٩٥٤ م، ومنذ هذا التاريخ ، والكتاب يعاد طبعه بلا تحقيق بينما اختفت الطبعة المحققة - حسب علمي - من المكتبات ؛ ولم يتح لي العثور عليها !

٧ - ومثل هذا الكتاب الذي لا تخلو منه مكتبة خاصة أو عامة جدير بأن يظهر - في طبعة محققة - تكون في متناول الجميع ، وبخاصة طلاب الآداب ، ومحبو اللغة وفقهها.

٨ - وهداني الله إلى الطبعة الأولى المنقولة من نسخة مولانا الفاضل الشيخ نصر الهوريني، والمقروءة عليه وقت التصحيح بالضبط والشكل وعليها تعليقات بخط مصححه الشيخ نصر نفسه إلى جانب الطبعة الأولى بالمطبعة الأدبية سنة ١٣١٧ هـ . وقارنت نسخه - القديم منها والحديث - بعضها ببعض ، وأثبت منها أصحها ، وأدقها عبارة ، ثم راجعت نقوله على مصادرها، وعلقت عليها بما هداني الله إليه ، وترجمت لمن نقل الثعالبي عنهم !

كما عزوت الآيات إلى سورها ، وخرجت الأحاديث المستشهد بها ، وراعيت الضبط وعلامات الترقيم ، وقدمت له بهذا الدراسة عن المؤلف ، والكتاب ، و«علم فقه اللغة!» .

فجاء - بحمد الله - كما ترى ، والكمال لله وحده ! **محمد إبراهيم سليم**